الفصل الثانى

البـــديع والنقـــد

أدى قَصْدُ الشعراء إلى البديع وتفـاوتهم فـى تناولـه بيـن مُسْـرِفٍ ومُقْتَصِـدٍ إلـى استجابات متفاوتةبين الدارسين والجماهير، فأثيرت قضايا تتصل بالنقد مثل قضيـة الصراع بين القديم والمحدث . كان أبو عمرو بن العلاء أكثر الرواة العلماء تشددا فى مناصرة القديم . ولم يكن يعدل بالشعر الجاهلى شعرا آخر . قال أبـو عثمـان : " حدثنى الأصمعى . قال : جلستُ إلى أبى عمرو عَشْرَ حِجَـج ، مـا سمعتُهُ يحتَجُّ ببيتٍ إسلامِىٍّ . قال : وقال مرة : (لقد كَثُرَ هذا المُحْدَثُ وحَسَّنَ حتـى لقـد هَمَمْـتُ أَنْ آمُرَ فِتْيَانَنَا بروايَتِهِ) يعنى شعر جرير والفرزدق وأشباههما." (١٦)

ارتبط الجاحظ بمدرسة البديع وأعلامها فشاهد ازدهار المذهب البديعى عنـد إقباله على الدرس فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى مما أتاح له التـأريخ للمذهب فـى شيخوخته قبيـل نهايـة النصـف الأول مـن القـرن الثـالث الهجـرى ، وتكشف هذه العبارة له قضاءه على التعصب فى الحكم الأدبى ودفاعه عن الجديد الجيد ، قال : " والقضيةُ التى لا أحتَشِمُ منهـا ولا أهـاب الخُصُومَـةَ فيهـا أن عامـة العـرب والأعراب، والبدو والحضـر مـن سـائر العـرب أَشْـعَرُ مـن عامَّـةِ شـعراء الأمصار والقرى من المولدة والنَّابِتَةِ ، وليس ذلك بواجِبٍ لهم فى كل ما قالوه .

وقد رأيتُ ناسًا منهم يُبَهْرِجُونَ أشعارَ المولدين ، ويستسقطون مَنْ رَوَاهَا ، ولـم أر ذلك قط إلا فى راويةٍ للشعر غيرِ بَصِيرٍ بجوهر ما يَرْوِى ، ولو كـان لـه بَصَـرٌ لعرف مَوْضِعَ الجيدِ مِمَّا كان ، وفى أى زمان كان" (١٧) .

والنص كما ترى يقضى فى قضية التعصب للعربى على المولد فيعترف لعامـة العـرب علـى عامـة المولديـن بـالتفوق ويفتـح بـاب الاستثناء مـن خـلال المقـاييس

الموضوعية من شعر الشاعر ، فنجده فى سياق الموازنة بين ما قيل فى الشعر فى صِفَةِ الخَيْلِ والجَيْشِ يوازِنُ بين أشعارٍ لأبى نُخَيْلَة ، ومنصور النَّمَرِى ، والعَجَّاج، وبَشَّار ، وعَمْرو بن كُلْثوم . فهو قد وضع الراجز والشاعر ، والعربى والمولد، والأعرابى والقروى كلا منهم بإزاء الآخر ، وأساس المفاضلة بينهم عنده جودة الشاعر الفنية فى تصوير معناه من حيث اللفظ والمعنى والنظم والصورة فيرفع من قدر بشار على أولئك الشعراء قائلا :"وهذا المعنى قد غلب عليه بشار"(١٨).وفى موضع آخر وازن بين أبيات للمهلهل وأخرى فى معناها لأبى نُوَاس وقال :"وأبيات أبى نواس على أنه مولد شاطر (الشاطر من أعيا أهله خبثا) أشعر من شعر مهلهل فى إطراق الناس فى مجلس كليب ."(١٩)

ومن القضايا النقدية التى تصدى لها الجاحظ قضية التعصب لشاعر ومذهبه الفنى . والتعصب يثير دعاوى ولا يقدم أحكاما وقد حاد الجاحظ بتلك الانفعالات إلى استكشاف مفهوم الطبع والتصنع وعالج قضية السرقات الشعرية لكى يبين حقيقة الابتكار فى المعنى الشعرى واستكشف مقياس الجودة الفنية .

حدثناك عن المدرسة الأدبية من الرواة أهل الدراية والشعراء والكتاب والخطباء وهى المدرسة التى اعتبرت البديع هو البلاغة ، كما حدثناك عن المدرسة الكلامية المتمثلةفى الجاحظ وعبد القاهر الجرجانى والسكاكى ، وهى المدرسة التى رأت البديع علما من علوم البلاغة لا يختص بالصورة البيانية (التشبيه والاستعارة) فهى من علم البيان. ونتساءل ما خطر هذا الاختلاف فى درس البديع ؟

لا نرى له خطر يذكر ، إذ تجتمع المدرستان الأدبية والكلامية على أن (البيان) أو (البلاغة) أو (البديع) غير النقد . والواضح مما أشرنا إليه من جهد الجاحظ فى التصدى للقضايا النقدية التى عاصرت ازدهار المذهب البديعى أن اختلاف

مسميات درس الأدب -باستثناء النقد - يدل على أنها جميعا دراسة أسلوبية تلتمس قواعد باستقراء النصوص الأدبية وتصوغها صياغة علمية وتدلل على صحتها بالشواهد الأدبية من القرآن والسنة فى الألفاظ والتراكيب والصور شكلا ، وفى قيم الكتاب والسنة مضمونا . وهذا ما تجتمع عليه الدراسة تحت مسمى البلاغة أو البديع أو البيان وتختلف مع النقد . وهذا ما تجتمع عليه المدرسة الأدبية والمدرسة الكلامية .

فالحاجة ماسة الى المقايسة بين البديع أو البلاغة أوعلم البيان وهى مسميات عدة لشيء واحد وبين النقد ونرى أن هذه المسميات تتعامل مع النص الأدبى على مستوى الإبداع وهو مستوى التفرد الفائق مستوى الصواب . أما النقد فمتصل لغة ومصطلحا بالمعيب أى مادون الصواب ، والنقد هو باب المآخذ فى درس الأدب .

● النقد مجاله الشعر والنثر ومحظور إطلاقه على الكتاب والسنة لغة وعقيدة ، وهذا يعنى أن مجاله أضيق من مجال البيان أو البلاغة أو البديع .

● النقد متصل بالذوق الأدبى اللَّمَّاح حين يلمح الظاهرة الأدبية ، وهو عُرْضَةٌ للتغيير . أما البلاغة أو البديع أوعلم البيان فعطاؤها متمثل فى المُعَالجة العلمية التى صدرت عن الذوق بعد نضجه والقدرة على تقنينه بجمع أشباه الظاهرة الأدبية من التراث الدينى والأدبى شعره ونثره.

● النقد مجاله الشعر والنثر بأى من المضمونين الجاهلى أو الايمانى . أما البلاغة أو البيان أو البديع فمجالها كل التراث الأدبى بشرط صدوره عن المضمون الإيمانى . فهذه الدراسات مجالها أرحب من النقد آثارا وأشمل أحكاما . ومجال النقد أشمل من مجالها مضمونا ، ولكن المضمون الجاهلى مرغوب عنه .

● ارتبط النقد ، للأسباب التى ذكرناها ، بالدعاوى التى لم تستقر ، والتى يُرْغَبُ عنها أحيانا. وارتبطت مصطلحات البيان والبلاغة والبديع بما تقرر لدى دارسى الأدب .

نقدم لك ردا علميا على الدعاوى التى صاحبت ازدهار المذهب البديعى وعايشها الجاحظ وحاد بالحوار من التعصب والانفعال المُؤَيِّدِ أو الرَّافِضِ إلى الدرس المَوْضِعِيِّ المَوْضُوعِيِّ للبديع فى شعر الشاعر . والرد متمثلٌ نص للأردستانى صاحب كتاب(لُمَع صناعة الشعر) والكتاب مفقود تفردأبو طاهر محمد بن حيدر البغدادى بنقل هذا النص النادر من نصوصه(٢٠).

يقول أبو طاهر البغدادى : " ومن لمع صناعة الشعر للأردستانى . وهو محمد بن أحمد ، قال : وكانت العرب إنما تُفَاضِلُ بين الشعر لشرف المعنى وجَزَالَةِ اللفظ ، وصِحَّةِ المبنى فتُسَلِّمُ السَّبْقَ فيه لمن وَصَفَ فأَصَابَ وألْطَفَ وشَبَّهَ فسدد ولمن كثرت له سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات ، ولم يكن يهتم بتتبع البديع إذا حصل له عمود الشعر ، ونظام القريض ، على أنه قد كان منهم من يتعمد لتنقيح شعره ويتعمد لتحسين ألفاظه وتشذيبها ، وترصين مبانيه ومعانيه وتهذيبها مثل زهير والأعشى والحطيئة وأبى صخر الهذلى وعدى بن الرقاع وأبى المسلم والخنساء وغيرهم .

فإن أثر الصنعة ظاهر فى أشعار هذه الطبقة ودال على مقاصدهم فيها ، وشاهد بمعرفتهم بها . ويدل على ذلك افتخارهم فى أشعارهم بالتجويد ، ووصفهم لمصابرة القول ومكابدة السهر فيه ، والتخير منه ، والصبر على عرضه وعمله

حولا ، حتى قالوا : (خَيْرُ الشعرِ الحَوْلِيُّ المُنَقَّحُ) ويُرْوَى ذلك عن الحُطَيْئَةِ. فقال سويد بن كراع (٢١) ، يذكر تقويمه شِعْرَهُ وطُولَ مُصَابَرَتِهِ له :

أَبِيتُ بِأَبْوَابِ القَوَافِي كأَنَّمَا ... أُصَادِي بِهَا سِرْبًا مِنَ الوَحْشِ نُزَّعَا
أُكَالِئُهَا حتَّى أُعَرِّسَ بَعْدَمَا ... يَكُونُ سُحَيْرًا أو بُعَيْدًا فَأَهْجَعَا
إِذَا خِفْتُ أَنْ تُرْوَى عَلَيَّ رَدَدْتُهَا ... وَرَاءَ التَّرَاقِي خَشْيَةَ أَنْ تَطَلَّعَا

فأخبر أن القوافي تعتاص عليه،وأنه يُكَالِئُهَا ويُكَابِدُها ويَسْهَرُ لها إلى أن تنقاد له .

وقال حارثة بن بدر (٢٢):

قَبَّحَ الإِلَهُ الإِلْفَ إلا مَا مَضَى ... والشِّعْرَ بَعْدَ مُرَقِّشٍ ومُهَلْهِلِ
وأبى دُوَادَ وأبى عُبَيْدٌ كُلَّمَا ... نَطَقُوا أَصَابُوا فِيهِ فَصَّ المَفْصِلِ

فمدحهم بالإصابة والتجويد .

وقال عدى بن الرقاع العاملى (٢٣):

وقَصِيدَةٍ قَدْ بِتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا ... حَتَّى أُقَوِّمَ مِيلَهَا وسِنَادَهَا
نَظَرَ المُثَقِّفِ فى كُعُوبِ قَنَاتِهِ ... حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافُهُ مُنْآدَهَا

فأخبر أنه يعاود النظر ويكرره حتى يُثَقِّفَهُ .

وقال عمرو بن هند (٢٤) :

فَإِنْ أَهْلِكْ فَقَدْ أَبْقَيْتُ بَعْدِى ... قَوَافِيَ تُعْجِبُ المُتَمَثِّلِينَا
لَذِيذاتِ المَقَاطِعِ مُحْكَمَاتٍ ... لو أَنَّ الشِّعْرَ يُلْبَسُ لارْتُدِينَا

فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحُسْنِ وتَمَيُّزَهَا عن أخواتها فى الرشاقة واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها ، وسموها البديع فمن محسن ومسىء، ومفرط ومقتصد . وهو ينقسم أقساما ، ويتشعب شعبا . فمنها الطباق و التجنيس والاستعارة والمقابلة ....."

فالبديع بهذا المفهوم هو التفنن فى صنعة الشعر والقصد إلى هذه الصنعة والصبر عليها ، والاعتداد بها . وبهذا المفهوم يعد أصحاب البديع من الشعراء هم أهل الصنعة الذين ينقحون أشعارهم بمعاودة النظر فيها وتثقيف ما اعوج منها ولا يعلنونها إلا إذا كانت محكمة الصنع متسمة بالرشاقة واللطف .

فالشاعر صاحب البديع لا يستجيب لطبعه استجابات تلقائية ، فالشعر فى نظره صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير ، و الشعر عنده اختيار . وبهذا لا يفترق أصحاب البديع عن غيرهم من الشعراء من حيث الكيفية ؛ لأن الشعراء جميعا لا يستجيبون لطباعهم استجابات تلقائية وإنما يختارون ويُحَكِّمُون أصول الصنعة .وبهذا يختلف أصحاب البديع عن غيرهم من الشعراء من حيث الكمية أى فى مقدار تلك العناية ولذلك قال الأردستانى (فمن مُحْسِنٍ ومسىء، ومُفْرِطٍ ومقتصد) .

ولا يقتصرالبديع – بناء على هذا التصور– على عصر دون عصر ، ومعنى هذا أن نسبة البديع إلى الشعراء المحدثين والمولدين دون الجاهليين والإسلاميين ، والزعم بأن البديع لون من الفن استحدثته الحياة الرافهة فى العصر العباسى ، والقول إن أصحاب البديع هم أصحاب الثورة على القيم الفنية الموروثة ، والنظر إلى أصحاب البديع باعتبارهم اللون الفنى المقابل للتقاليد الموروثة فى الشعر المعروفة بعمود الشعر– كل هذه الدعاوى نتجت عن التعصب الذى أحدثته الخصومة حول شاعر ومذهبه الفنى وسجله الأمدى فى الموازنة بين الطائيين فى شكل مناظرة بين فريقين يشايع أحدهما أبا تمام ويشايع الفريق الثانى البحترى. وسياق المناظرة فى باب احتجاب الخصمين يثبت للمنصف أن هذين اللونين من التعبير الفنى موجودان منذ الفترة السابقة على الاسلام ، فالبديع – كما دلل الأردستانى – عرف عند شعراء جاهليين وشعراء إسلاميين لم يتجاوزوا المائة الأولى من الهجرة .

أما وجوه البلاغة المندرجة تحت هذا المسمى فهى متنوعة متزايدة على مر العصور ظهرت فى أول مُؤَلَّفٍ بهذا الاسم سنة أربع وسبعين ومائتين هو البديع لابن المعتز وكان قد جمع منه ثمانية عشر نوعا بعضها يدخل فى مصطلحنا فى علم البيان وبعضها يدخل فى علم البديع . وقال:" ماجمع قبلى فنون البديع أحد ، ولا سبقنى إلى تأليفه مؤلف"ومن أراد أن يقتصر على ما اخترعناه فليفعل ومن رأى إضافة شيء من المحاسن إليه فله اختياره ."

وقد أثبتنا فى الجزء الثانى من كتابنا آراء الجاحظ البلاغية أن الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هجرية قد سبق ابن المعتز إلى دراسة البديع فى كتابيه البيان والتبيين والحيوان ولكنه لم يفرده بكتاب خاص كما فعل ابن المعتز .